مبارك عبده فضل

«كان أبى يشجعنى على حفظ القرآن كى أدخل الأزهر. وكان يقول لى كل صباح إن لم تتعلم لن يكون أمامك سوى أن تعمل خادما لتشرب الإهانة والذل كل يوم»
مبارك عبده فضل

لا ضرورة للقول إنه فقير ابن فقير، يكفى أن تقول هو نوبى. فالفقر يطحن النوبيين جميعا. الأب خادم فى أحد منازل الأغنياء ثم أسعده الحظ وعمل ساعيا فى وزارة المالية بأربعة جنيهات شهريا. وتعلق طموحه بأن يتعلم مبارك ويصبح أفنديا، لكن الولد ضعيف الإبصار وسقط فى الكشف الطبى فلم يستطع الالتحاق بمدرسة عنيبه الابتدائية، ولا سبيل سوى الالتحاق بالأزهر. وفى عام ١٩٣٩ وكان فى الثانية عشرة حضر مبارك إلى القاهرة وعكف على حفظ القرآن على يدى شيخ نوبى هو الشيخ حسن قاسم. استغرق الأمر عامين كاملين كل يوم كان والده يذكره : إما حفظ القرآن وإما أن تعمل خادماً. وفى عام ١٩٤٢ أتم الحفظ ودخل ابتدائية الأزهر. الإخوة خمسة والسكن فى غرفة واحدة فى منزل فقير بالسبتية. وكل يوم يعطيه الأب خمسة مليمات. يمشى من السبتية إلى الدراسة حيث المعهد، ويعود ماشيا أيضا، أما المليمات الخمسة فهى لطعامه طوال اليوم.. طعام لا يتغير، سندوتش مكرونة. واستمرت المعاناة حتى ١٩٤٥ عندما قررت الحكومة منح الطلاب الغرباء معونة شهرية. والمثير للدهشة أنهم كانوا يعتبرون النوبيين غرباء، وضموهم هم والنوبيين السودانيين فى رواق واحد هو رواق شمال السودان، ولم يثر الأمر دهشة أحد، فالجميع كانوا يعتبرون أن وحدة مصر والسودان أمر واقع. الأزهر منحه ثلاثة جنيهات شهريا وجنيهًا رابعًا من مجلس الوزراء. هذه الثروة اقتسمت بالعدل؛ «الشيخ مبارك» (بهذه الثروة استحق لقب شيخ) ينال جنيها كاملا والثلاثة للأسرة. ويقول مبارك: «بهذه الجنيهات الثلاثة أصبحت الأسرة، كلها تحترمنى وتغيرت معاملة أبى تماما، توقف تماما

عن ضربى أو إهانتى (وكان يفعل ذلك بسبب ودون سبب)، وأصبح يتشاور معى فى شئون الأسرة وهكذا اكتشفت قيمة أن أتعلم، وبالذات أن أكون أزهريا. كنت طالبا مجدا وأنجح بتفوق وأقرأ كثيرا. وخاصة فى كتب الأدب، ثم تحولت إلى كتب التاريخ». ثم كانت البداية: «فى صيف عام ١٩٤٥ وخلال الإجازة الصيفية وبعد أن نجحت فى امتحان النقل من الثالثة إلى الرابعة الابتدائية. وفيما أتجه أنا وطالب أزهرى يسبقنى بعامين لنلعب مباراة كرة شراب (هو محمد عثمان نور) وهو من أبناء قرية أبو هور النوبية سألنى: ماذا تعرف عن الشيوعية؟ فقلت أعرف أنها تساوى بين الأغنياء والفقراء (إنه إحساس الفقير المطحون الذى دفع عديداً من الشبان النوبيين إلى صفوف الحركة الشيوعية) وسألنى ثانية: عايز تبقى شيوعى؟ قالها ببساطة ودون مقدمات، وأجبته ببساطة: أيوه - وببساطة أصبحت عضواً فى الحركة المصرية للتحرر الوطنى. حيث تلقيت تسع محاضرات مطبوعة أذكر منها (أمراض المجتمع - تطور المجتمع - الرأسمالية - الاستعمار - الاشتراكية - الفاشية والحرب). وكانت محاضرات مبسطة جداً كل منها حوالى سبع صفحات. ويشرحها لنا طالب سودانى هو عبدالله الأمين. وبعدها أصبحت عضواً فى الحركة المصرية. وفيما كان أبى يشرف على تنظيف الغرفة فى يوم إجازة عثر على مجموعة من النشرات والكتيبات الشيوعية، وفزع وجرى نقاش حاد انتهى بعبارة حاسمة: يا ابنى أنا كمان ضد الأغنياء لكن لا يمكن لفقير مثلنا أن يحاربهم ولازم تكون غنى علشان تقدر عليهم». الأب بكى للمرة الأولى فحلمه فى ابن معمم ينال مرتباً كبيراً ويصبح ملاذا للأسرة كلها يتبدد. ومن البكاء إلى مجالس عائلية، لكن الفتى يزداد عنادا فكان أن طرده الأب من البيت. وظل الفتى يرسل لأمه سراً بعضا من الجنيهات الأربعة ويدرس فى المعهد ويعمل فى قسم الأزهر الذى كان يضم عديداً من الأزهريين الشيوعيين، كما أسهم مع زكى مراد ومحمد خليل قاسم فى بناء القسم النوبى فى التنظيم. وفى عام ١٩٤٨، وكان فى ثانوية الأزهر وجرت محاولة من المشيخة لتنظيم مظاهرة من طلاب الأزهر يتقدمهم شيوخ الأزهر الكبار رافعين علم الأزهر للسير إلى قصر عابدين لتهنئة الملك بعيد ميلاده.. رفع العلم فى المقدمة ووقف الشيوخ فى الصف الأول يتوسطهم الشيخ أحمد حسن الباقورى لكن التلاميذ تمردوا، كان مبارك وقسم الأزهر فى «حدتو» ومجموعة الأزهريين الوفديين قد حشدوا الطلاب ليرفضوا الخروج. وفشلت المظاهرة وتحول الفشل إلى كارثة فالقصر كان

ينتظرهم. وتقرر فصل الطالب مبارك عبده فضل من الأزهر الشريف والتهمة «شيوعى»، ورغم الفصل فقد كان «الشيخ الصغير» يقفز عبر السور ليلتقى بالطلاب وينظم منهم مظاهرة فى ٢١ فبراير ١٩٤٨ ويقف ليلقى خطبة نارية ضد القصر وضد الاحتلال، ويقبض عليه ويحبس ثلاثة أشهر تكون بداية لمشوار طويل عبر السجون.

وفيما كان الفتى يقترب من سن الحادية والعشرين كانت «حدتو» تعانى من ضربات عدة، الضربات البوليسية المتتالية والانقسامية التى أربكت صفوف المنظمة. وطلب إليه أن يحترف فوافق على الفور. ويقول: «حضرت اجتماعات لجنة بحرى وكانت تضم، فيما أذكر، فؤاد عبد الحليم، وحمدى عبد الجواد، وفهمى زغلول، وعسكرى مطافى من الزقازيق اسمه رزق سرور، وأصبحت مسئولا عن قسمين: المحلة ودمنهور. وكان فى دمنهور عدد محدود من الرفاق منهم شاب نوبى هو عبد المنعم مكى (موظف فى شركة كوكاكولا) والأديب محمد صدقى وعدد من الرفاق. وكان مكى مرعوبا من توالى حملات القبض فاستقبلنى بحذر برغم أنه نوبى مثلى، وفيما أغادر كان معى قرش واحد (وهذا يوضح وضعنا كمحترفين) طلبت منه أى مبلغ فرفض بشدة وكأنه يقول لى لا تعد إلى هنا مرة أخرى. وكنت مطلوبا للبوليس ولا ملجأ لى إلا فى طنطا. ولا أستطيع المغامرة بركوب قطار بلا تذكرة. فسرت على قضيب القطار متجها إلى طنطا. وعندما وصلت إلى كفر الزيات (أى سرت حوالى ٦٠ كيلو مترا) كنت على وشك الإغماء وأشفق على عسكرى كشك المرور فأوقف سيارة نقل أوصلتنى إلى طنطا. ومن طنطا إلى المحلة وقبض على هناك. وبقيت فى سجن طنطا لعدة أشهر ثم أفرج عنى ورحلت إلى قسم بولاق فى انتظار ترحيلى إلى المعتقل. وبقيت فى حجز قسم بولاق خمسة عشر يوما هى أسوأ أيام حياتى.. بلا طعام (ثلاثة أرغفة فقط ودون أى طعام آخر) ولا غطاء ولا أى شىء سوى الأسفلت، والبرد كان شديداً جداً، وكدت بالفعل أموت من البرد، ومع ذلك لم أتصل بأسرتى التى تسكن قريبا من السجن كجزء من عنادى إزاء إصرار أبى على تركى للعمل الشيوعى. ثم رحلت إلى هايكستب وبدأت فى التعرف على المعتقل وما فيه من معتقلين، كثير منهم من هواة الثرثرة والانقساميين». ويسكت مبارك لأتحدث أنا فقد كنت هناك وتلقفنى هو. أنقذنى من الضياع وسط غابة مناقشات لا تنتهى، وظل يدرس لى كل ما تعيه ذاكرته من معلومات وخبرات.. وأصبحنا أصدقاء..

ويفرج عنا جميعا مع عودة حكومة الوفد (١٩٥٠) إلا هو، فقد قرروا ترحيله من مصر باعتباره سودانيا لكنه نجح فى إثبات مصريته.. وأفرج عنه ليبدأ من جديد.

***

«وتعلمت الدرس الحاسم، فالبرجوازيون الصغار فى صفوفنا هم الأكثر كلاما والأكثر نقداً والأسرع فى الهروب»
مبارك عبده فضل

خرج من المعتقل إلى أحضان «حدتو» التى عانت طوال فترة ١٩٤٧ - ١٩٤٩ معاناة شديدة، كثير منها بسبب المطاردات الأمنية، لكن الأكثر أتى من الانقسامية. فالانقساميون ملأوا الدنيا ضجيجا، ومزقوا المنظمة، وثرثروا بما كشف أمان الكثيرين. وفى المعتقلات والسجون كانوا الأعلى صوتا والأكثر نقدا للآخرين، كل الآخرين، وعندما أفرج عن الجميع ذابوا بعيدا عن الأنظار. عديد من قادتهم تقبلوا برضاء الدخول فى المصيدة التى نصبها لهم فؤاد سراج الدين. وكان وزيرا للداخلية فى حكومة الوفد. والعرض بسيط للغاية. الدولة ستوفدك لإعداد رسالة الدكتوراه فى الخارج وقبل الكثيرون منهم وسافروا إلى لندن وباريس ولم يعد كثيرون منهم إلا بعد انتهاء الأيام الصعبة وبعد أن تحصنوا بالدكتوراه. لكن مبارك ليس أمامه ولا خلفه سوى حزبه ونضاله فوضع نفسه تماما وبشكل كامل تحت تصرف الحزب، وأصبح عضوا فى السكرتارية المركزية التى تمثل أعلى مستوى قيادى يومى، وتولى العمل فى قطاع منطقة المعز (القاهرة) كما كلف الإسهام فى إصدار مجلة «البشير».

وكانت «البشير» هى الخطوة الأساسية فى تحقيق توجه جماهيرى حقيقى لمنظمة «حدتو». استأجر الترخيص فتحى الرملى وأصدرها لفترة بمعاونة مجموعة ماركسية صغيرة ثم انفتحت عليه «حدتو» واتفقوا على أن تمول «حدتو» الجريدة (٣٠ جنيهًا كل عدد) وأن تحرر صفحاتها ما عدا مقالات فتحى الرملى. وأن تقوم بتوزيعها، ولا مقر للجريدة. يلتقى المحررون الثلاثة: فتحى الرملى - عبد المنعم الغزالى - مبارك عبده فضل فى مقهى صغير بالفوالة قبل موعد صدور العدد بيوم يكتبون العدد بأكمله، وكان فى الأغلب لا يحمل توقيعاتهم، لكننى أحضرت مجموعة «البشير» والتقيت مع مبارك فأشار

إلى عدد من المقالات مؤكدا أنه كاتبها. وفى أول عدد صدر بمساندة «حدتو» كتب مبارك: «إن هدفنا هو أن نخلق بجهودنا ومجهودكم مجلة حرة تمثل الأحرار فى مصر وتربطنا بالمعركة المستعرة الأوار فى العالم والتى تهدف إلى القضاء على الاستعمار بشتى صوره والقضاء على تجار الحروب أعداء السلام، لقد عقدنا العزم على أن نقفز قفزة كبيرة إلى الأمام، ونخرج المجلة فى ثوب جديد، ولن يتحقق هذا الأمل إذا لم تساهموا بجهودكم معنا». (البشير١/٧/١٩٥٠). ويجدر بنا أن نسجل أن «البشير» كانت توزع بأيدى أعضاء وكوادر «حدتو». ولا يستثنى أحد من مهمة التوزيع. فحتى مبارك عضو السكرتارية المركزية كان يتسلم حصته من المطبعة ليدور على المقاهى والأندية النوبية ليوزع البشير «مساء». وفى صباح اليوم التالى يحمل عددا من اللفافات إلى عدد من مدن بحرى. وفى كل أسبوع كان يحضر إلى المنصورة لينتظرنى عند بقال عضو جديد فى التنظيم لأمر عليه بعد انتهاء الدراسة وأتسلم منه خمسين نسخة وأعطيه ثمن العدد السابق.. ثم نمضى ساعة أو أكثر لنتابع تطور العمل الحزبى.

وكان أكثر ما يلح عليه الرفيق داود (مبارك) هو توسيع قاعدة العضوية والعمل الجماهيرى. وكان يدقق كثيرا فى مجال العمل من أجل السلام ويحصى بدقة عدد التوقيعات التى جمعناها طوال الأسبوع على ميثاق استوكهولم الذى يطالب بحظر استخدام الأسلحة النووية.

وتغلق «البشير»، ثم تحترق القاهرة، ويختفى مبارك، فقد كان يزهو دوما: «إذا لم يكن لديك مسكن فأنت فى مأمن من غدر البوليس». لكنه وبسبب ضعف إبصاره الشديد كان يتعرض للقبض عليه سريعا. وقبض عليه وإلى السجن من جديد. ثم تكون ثورة يوليو ويجرى صراع شديد وساخن حول الموقف منها، خاصة أن الرفيق ستالين هاجمها وقال إنها تعبير عن انتصار عملاء الاستعمار الأمريكى على عملاء الاستعمار الإنجليزى. لكن «حدتو» كانت شريكة فى صناعة الثورة (خالد محيى الدين – يوسف صديق – أحمد حمروش – أحمد فؤاد – وعشرات من الضباط) فكيف يمكن أن يقبل أحد أنها صناعة أمريكية؟! ولكن من يستطيع مواجهة ستالين؟ وتصدى مبارك بشجاعة ليعبئ كل «حدتو» فى مسار التمسك بالموقف الصحيح، تأييد الثورة وشن حملة شديدة للمطالبة بالديمقراطية، لكن الشق الثانى أدى إلى صدام عنيف انتهى بعديد من الكوادر إلى

السجون الناصرية. وكان مبارك هو المحرك الأساسى للتمسك بهذا الموقف الصعب الذى أدى بـ«حدتو» إلى أن تغضب الحركة الشيوعية العالمية والحكام العسكريين معا. كان الثمن باهظا. لكن الموقف كان صحيحا، وهكذا فرض مبارك على الشيوعيين المصريين منطقا صعبا هو أن تتمسك بالموقف الصحيح مهما كان الثمن الذى تدفعه. وتثبت الأيام صحة موقفه.

وإذ تتوالى فترات السجن يستقر به المقام فى «سجن مصر» (كان فى موقع كوبرى السيدة عائشة) وسط حوالى ستمائة من الشيوعيين من مختلف التنظيمات فينشط داعيا إلى الوحدة وينجح فى تشكيل لجنة للوحدة «مبارك (من حدتو) – حمدى عبد الجواد (من حدتو ت.ث – إبراهيم عرفة (النواة) أحمد خضر (النجم الأحمر) فخرى لبيب (طليعة الشيوعيين)، واختاروني لتولى سكرتارية اللجنة، أسجل المحاضر وأخفيها وأتولى إخراجها إلى خارج السجن حيث وجدت لجنة موازية»، وأثمر هذا الجهد «الحزب الشيوعى الموحد».

ويتوالى السجن مرة ومرات حتى يكون الإفراج عن الجميع فى ١٩٦٤. ثم يكون حل التنظيمين الشيوعيين الكبيرين. وفى اليوم التالى مباشرة للنكسة كان مبارك يجمع خمسة من الكوادر ليؤسس معهم حزبا جديدا سريا تماما، ومشكلا أساسا من عضوية جديدة، أما مطبوعاته فكانت توقع «أحمد عرابى المصرى» إمعانا فى السرية. ويبقى مبارك عبده فضل، مقاتلا حتى الرمق الأخير.